

قضايا الأدب والأدباء

تهمتان بلا دليل

مقفي ام لم يكتبوا . كما ان العقاد نفسه يعرف شخصيا (ولا اشك في هذا مطلقا ، بل اجزم به في تأكيد قاطع) عددا من الشعراء المجددين ، ولا بد انه قرأ لهم شعرا موزونا مقفى . وعلى كل حال فان قول العقاد هذا لا يبعث على الدهشة فقط ، بل يبعث ايضا على الاحتجاج الشديد ، لانه يتناسى جميع الحقائق التي تبرهن بما لا يقبل الجدل على الخطأ والخلل الشديدين في هذا الرأي ، ذلك لان اشعار السياب ونازك الملائكة والصبور وسعدي يوسف الموزونة المقفاة اكثر جودة من اشعار العقاد نفسه ، حتى يمكن القول ان اشعار العقاد تبدو ساذجة بالقياس الى اشعار الشعراء المجددين هؤلاء (1) . ومن الصعوبة جدا المقارنة بين اشعار العقاد وبين اشعار نزار قباني الموزونة المقفاة ، والدليل على ذلك ان شهرة العقاد ككاتب ومفكر اكثر من شهرته كشاعر ، اما نزار قباني فلا يشك حتى العقاد نفسه في شاعريته . وكذلك القول بالنسبة لقدوى طوقان ، فان ديوانها الاول « وحدي مع الايام » يبرهن على المستوى الشعاري الرفيع الذي بلغته ، بل ان في ديوانها الاخير « اعطنا حبا » قصائد موزونة مقفاة لا تقل روعة - ان لم تكن تزيد - عن قصائد الشعراء العموديين المعتصمين للتقاليد الشعرية الموروثة .

ومن بين الشعراء الذين حملوا قصائد مهمة قومية ، بالإضافة الى حفاظهم على التقاليد الشعرية القديمة ، الشاعر السوري سليمان العيسى ولكنه ابتداء اخر في كتابة قصائد بنحو فيها منحى الشعر الحر ، فهل يمكن ان نعتقد ان ميله الى كتابة الشعر الحر دليل على عجز منه عن التعبير بالشكل القديم ؟ اظن ان كلا دليلي على ذلك انه استطاع كتابة قصائد عمودية خلال فترة طويلة زمنية ، فليس من المعقول ان يمجز في النهاية عن كتابة قصائد جديدة من الشعر العمودي .

ويمكن ان تتفرغ من هذه التهمة - اي تهمة العجز - تهمة اخرى ، هي فقدان الشعر الحر للموسيقى ، ولا ريب ان بعض المتحاملين على تجديد الشعر يحاولون بكل طريقة ممكنة البرهنة على ان الشعر الحر يفقد الموسيقى . وهذه مغالطة ، لان « الجديد » في « الشعر الجديد » هو تطور الموسيقى بالدرجة الاولى ، واعتقد اننا لسنا بحاجة الى ان نكرر في كل مناسبة ان الوحدة الهندسية (او الموسيقية) للشعر الحر هي التفعيلة ، وان الشاعر حر في اختيار العدد المناسب من التفعيلات التي تكفي للتعبير عن قرارة شعوره . ولكن هذه الحقيقة لا تؤخذ مأخذ الجد من قبل اعداء التجديد ، لانهم يرون ان التقاليد الشعرية الموروثة مقدسة لا يجوز المساس بها ، فالتجديد - وهو مساس بالتقاليد الموروثة بلا ريب - مرفوض سلفا من قبلهم ، وايماء رأي مصيب ومقتنع يعتبر في نظرهم لسوا باطلا .

اما التهمة الثانية ، تهمة هدم اللغة العربية وهدم الفن الجميل ، فهي تهمة اشد غرابة من التهمة الاولى ، لان معنى هذه التهمة ان سائر الشعراء المجددين (من شعراء الموجة الاولى السياب والبياتي ونازك ، الى شعراء الموجة الاخيرة ومنهم سليمان العيسى) تعوزهم الوطنية الصادقة

اصبح من الشائع ان يسمع انصار التجديد في الشعر اتهامات يشهروا اعداء التجديد هنا وهناك مستغلين - اقصد المحافظين - الهفوات التي يقع فيها الشعراء المجددون قدر الامكان . ولعل من اخطر الاتهامات تلك التي وجهها « عباس محمود العقاد » في كتابه « اللغة الشاعرة » ، لان العقاد يحاول ان يبرهن علميا ومنطقيًا على الضرر الذي يلحقه تجديد الشعر باللغة العربية اولا ، ولانه رئيس لجنة الشعر في المجلس الاعلى للادب والفنون في مصر ثانيا ، ولكانته الفكرية التي احتلها عن جدارة خلال كفاحه الادبي الطويل اخيرا .

كل هذه الاسباب تجعل اتهامات العقاد خطيرة ، وتجعل مناقشة هذه الاتهامات مسألة لازمة وواجبة . وعلينا في البدء ان نتذكر ان العقاد لم يدور سيظل مذكورا على كل حال - في تجديد الشعر نفسه ، فنحن لا نزال نتذكر حملاته العنيفة على الشعر الكلاسيكي الذي كان ينشده شوقي مثلا ، كما نتذكر بمزيد من الوضوح مطالبة العقاد للشعراء الكلاسيكيين بملاءمة ذوق العصر . ولهذا يكون من الغريب جدا ان يقف العقاد نفسه وهو الذي سبق له ان حمل لواء التجديد - معترضا التجديد فسي الشعر بحجج ليس لها ما يبررها على الاقل . لذا اذن يقف العقاد مثل هذا الموقف ؟

ينبغي ان نلاحظ هنا ان العقاد لا يقف محافظا في مسألة الشعر فحسب ، بل ان آراءه في الاجتماع والسياسة والفلسفة وحتى التاريخ هي آراء محافظة ، على الاقل في السنوات الاخيرة من حياته الادبية . لقد تبديل اذن « الكاتب الجبار » - وليس هذا اللقب من عندياتي وانما اطلقه عليه المرحوم سعد زغلول - او قل انه ابدل آراءه الاولى وسار في الطريق العاكس للتجديد بتأثير ظروف خاصة ، ولكن يجب ان نعترف هنا ان هذه الظروف الخاصة لم تجبر العقاد على تبديل طريقه ، وانما هو الذي ابدل هذه الطريق باخرى . والارغ ، ما هو رأي العقاد في الشعر الجديد ؟

يقول في كتابه « اللغة الشاعرة » : « ان الدعوة الى الغاء الازان ذات البحور والقوافي في اللغة العربية لا تأتي من جانب سليم ولا تؤدي الى غاية سليمة ، فلا يدعو اليها غير واحد من اثنين : عاجز عن النظم الذي استطاع الشاعر العامي في نظم القصص الطويلة والملاحم التاريخية مسن امثال السيرة الهلالية وسيرة الزبير وغيرها من السير المشهورة المتداولة ، او عاجز عن النظم الذي استطاع الشاعر العامي والشاعرة العامية في نظم اغاني الاعراس ونواح الماتم وامثال الحكمة والنصيحة على السنة المتكلمين باللهجات الدارجة . . . فان لم يكن نقص الملكة الفنية سبب العجز عن اوزان الشعر العربي والدعوة الى ابطال هذه الازان فهو اذن عمل من اعمال الهدم الصراح عن سوء نية وخبث طوية » نرى هنا ان العقاد يحصر المجددين في الشعر في فئتين : الاولى فئة عاجزة عن مجارة الشعر العمودي اي انها لا تملك القدرة على كتابة الشعر بالطريقة التقليدية ، والفئة الثانية تهدف الى هدم اللغة العربية وفنها الشعري الجميل تحت ستار التجديد .

وانا لا استطيع الا ان اقف عند النقطة الاولى باندهاش كبير ، ذلك لان العقاد ليس من اولئك الكتاب الذين تعوزهم المراجع او المصادر حتى يتمتع عليه معرفة ما اذا كان الشعراء المجددون قد كتبوا شعرا موزونا

(1) بشأن اشعار العقاد يراجع ما كتبه فريد الادب مارون عبود عنها في كتبه النقدية الشهيرة .

قريبا :

في سلسلة المسرحيات العالية

رؤوس الأخرين

مسرحية في أربعة فصول

بقلم

مارسيل إيميه

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

مسرحية رائعة يصور فيها الكاتب
الساخر مارسيل إيميه القضاء
الفرنسي وما يحيط به من فضائح .
وقد قدم المؤلف للمحاكمة ، ولكن
القضاء الذي هاجمه قد برأه !! ..

منشورات دار الآداب

والفيرة المخلصة للغة العربية ، فهل هذا جائز منطقيا وعمليا ؟ نسـم
ان القاء تهمة الهدم هذه يفترض وجوب تعاون هؤلاء الشعراء مع جهات
غير عربية وذات اهداف استعمارية او ما شابه ذلك ، وهذا يتنافى
مع واقع الحال ، فان قصائد السياب المجددة الاولى تحمل عاطفة وطنية
صادقة وعاطفة انسانية نبيلة ، وكذلك القول عن سليمان العيسى (آخر
الشعراء العموديين الذين استجابوا لذوق العصر) فان قصائده تحمل
عاطفة قومية لا يشك في عدائها للاستعمار وغيرتها على لغة العـرب
وامانتها على امانتهم القومية . واخيرا - وليس اخرا - ماذا يقول
العقاد ومناصروه في رايه في القصائد الكثيرة الفنية بالعاطفة القومية
التي قيات اثناء العدوان الائم على مصر عام ١٩٥٦ ؟ انكون تلك القصائد
هادفة الى هدم اللغة العربية وهدم الفن الجميل حقا ؟ (١) وما هو
رأي العقاد ومناصروه ايضا في القصائد الجديدة التي قيلت في ثورة
الجزائر ؟

ان واقع الحال يقرر ان هذه التهمة التي قالها العقاد في اكثر
من مناسبة ، وكررها اخرون بمناسبة ودونها ، ليست اكثر من تيرير
ساذج لمعاداة الشعر الجديد ، تيرير يعوزه الدليل المنطقي والعملي معا .
واذا حدث ان ظهر في هذا المجال شنوذ ، فان هذا الشنوذ ناتج اما عن
سوء فهم لحركة التجديد او عن سوء نية مبيتة . ومثال سوء الفهم
تلك « القصائد » السخيفة التي لا تزيد على اللغو والهذر والتي تنشر
بين آن واخر في هذه المجلة او تلك ، اما سوء النية البتة فتتضح
بجلاء في محاولات « شعراء » مجلة « شعر » اللبانية ، والتي تهدف
الى تقليد مدارس الشعر الغربية بلاوعي ولا تمييز بين الملائم وغير الملائم
وكذلك تهدف الى قطع الصلة بالشعر العربي الكلاسيكي .

ايكون من المنطق اذن ان نأخذ الشنوذ ونصيره قاعدة عامة في هذا
الصدد ؟ ايكون من المعقول ان نتناسى الحقائق الواضحة التي تبرهن
على ضرورة التجديد في الشعر وتمسك بأذيال شنوذ باهت لا يلبث
ان يختفي اذا تيسر له نقاد عارفون بوظيفة الشعر وطبيعة تجديده؟

وبعد ، فان تهمة العجز وتهمة الهدم ، اللتين ناقشنا تفصيلهما في
السطور المتقدمة ، ستظلان تهمتين بحاجة الى برهان منطقي ودليل
عملي ، وجميع الابواق التي تردد هاتين التهمتين سيظل الفشل يلاحقها
دائما ، ما دامت هذه الابواق لا تزال تعيش على خيالات تتوهمها حقيقة
مطلقة لا تقبل المناقشة .

علي الحسيني

الجمهورية العراقية - الحلة

(١) في غمار تلك الايام العسبية ، اسدر العقاد في القاهرة كتابا
عن « جحا » فكارن وتأمل !!

دراسات ادبية

من منشورات دار الآداب

لحي الدين صبحي

نزار قبلي شاعرا وانثانا

للدكتور محمد منصور

لصايا جديدة في ادبنا الحديث

لرجاء التقيان

في ازمة الثقافة المصرية